فرضيات عمل وتأمل انطلاقا من مفاهيم اقتصادية ذات أصل عربي متبناة من قبل لغات أوروبية اللغة الإيطالية ودورها في هذا الميدان خلال القرون الوسطي

محمد الأخضر بن حسين
أستاذ بمعهد العلوم الإقتصادية

لسنا مؤرخين محترفين ، وانما نتأمل في التاريخ في علاقاته مع الاقتصاد والنشاط الاقتصادي والتأمل الاقتصادي . إن استعمال اللغات الايطالية والاسبانية والفرنسية والأنجليزية استعمالا شبه دائم لمفاهيم اقتصادية معينة بيننا أصلها العربي هو الذي دفعنا الى طرح مجموعة من التساؤلات وقادنا الى المبادرة بهذه الدراسة .

نحن لسنا بالأوائل في جلب الانتباه الى مثل هذه المسائل . بل هناك اخصائيون في اللسانيات ومستشرقون مرموقون عكفوا على دراسة هذه المسائل . ان مؤرخين للعلوم والتخصصات العديدة قد لاحظوا وجود رصيد لغوي من أصل عربي يستعمل كسند مفاهيمي لعلوم عدة .

اننا لا نريد تكرار نفس العمل ولا اعادة نفس الجهود الحميدة التي بذلتها عقول أكفأ منا في مختلف هذه الميادين .

هدفنا هو اعطاء اهتمام خاص لدراسة التأمل الاقتصادي في الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي ، الميدان الذي نرى فيه نقص في الدراسات ، رغم أنه يشكل جانبا هاما من هذا الفكر ، ومعرفته قد تساهم في توضيح نقاط عديدة مازالت غامضة في الوعي الاجتماعي الماضي والحاضر للعالم العربي الإسلامي .

غير أن الهدف الفوري المنتظر من مثل هذه التأملات هو البحث في حصر نوع النشاط الاقتصادي الذي تحمله هذه المفاهيم المتبناة من قبل هذه اللغات وابراز معنى أو معاني هذا التبني . ثم هل ينبغي الاكتفاء بنتائج هذه النقطة أم يجب التساؤل عما اذا تم بالاضافة الى تثبيت المفاهيم بواسطة هذا النشاط الاقتصادي الخارجي ، نقل طرف وأدوات حساب وتحليل وفكر اقتصادي كذلك[☆] .

نحن نعتقد بأنها مهمة شاقة وأن الاجابة عن هذه الانشغالات يمكن أن تشكل موضوع لتحديد ميادين بحث متعددة ودقيقة في نفس الوقت .

1) – ما هي هذه المفاهيم الاقتصادية ؟

لن نذكر سوى تلك المفاهيم التي كانت موضوع تأكد اعتمادا على القواميس المعتمدة والتي كانت تعطي أحيانا تاريخ بداية الاستعمال في اللغات الأوروبية ولم تكن بطبيعة الحال القواميس المعتمدة وحدها في اعداد هذه القائمة غير المكتملة بل عرفنا من الأعمال المختلفة لبعض المستشرقين الأوروبيين الجادين الذين يعطون في بعض الأحيان ، من خلال دراساتهم لمسائل أخرى ، مؤشرات عن ذلك .

والقائمة أدناه هي بعيدة في نظرنا عن أن تكون كاملة :

- Aval (1675) حوالة
- Calibre قالب
- Gabelle(1330) جباية
- Camelot خملة
- Mesure مسطرة
- Quintal (القرن 13) قنطار .
- Baril برميل
- Chèque صك
- Once أوقية
- Tare (1318) طرحة .
- Sequin (آخر قرن 14) سكة
- Avarie (القرن 12) ضرر .
- Crédit (1491) قرض .
- Cube كعب
- Hasard زهر
- Mine معدن
- Risque (1557) رزق
- Trafic (1339) ترافق
- Magasin مخزن
- Tarif(1572) تعريف .

كما أن هناك مفاهيم أخرى يمكن أن نتساءل عما اذا كانت من أصل عربي مباشر ، وذلك بسبب نقص منا في بحوث اللسانيات . وسنذكرها رغم هذا النقص معتقدين بأن التأمل انطلاقا منها سيمكننا من النظر الى مشاكل أخرى .

ويتعلق الأمر بمصطلحات مثل :

Domaine هل جاءت من الكلمة العربية (ضمانة) و Canal من (قناة) ؟
و Hèritage من (ارث) و Carat من (قراة) و Darse من (دار الصناعة) .
و Mangons التي جاءت من الكلمة العربية (منقوش) ، هذه العملة القديمة التي كانت دولية مقبولة في الصفقات التي كانت تبرم بين العالم العربي الاسلامي وبلدان أوروبية محاذية للبحر المتوسط بصفة خاصة .

وأكد كلودكاهن Claude Cahen ان نصوص ايطالية تعود الى القرن التاسع وأخرى فرنسية واسبانية وأنجلوسكسونية تضمنت كلمة (Mancus) المأخوذة من الكلمة العربية (نقش) .

ان المفاهيم الاقتصادية ذات الأصل العربي ، رغم كل ما يمكن أن يكون من تحفظات حول كونها قد تم تبنيها في السابق من قبل اللغة العربية نفسها ، تعتبر مؤشرات ثمينة تدل على العلاقات الاقتصادية التي كانت قائمة بين العالم العربي الإسلامي وأوروبا حيث كانت ايطاليا تلعب دورا بالغا فيها .

2) – الدلالة التاريخية لهذه المفاهيم :

ان المفاهيم الاقتصادية هي دائما تعبر عن علاقات اقتصادية ، تلك العلاقات التي هي ليست معزولة عن انعكاساتها الاجتماعية .

بالاضافة الى ذلك ، فانه اذا أخذنا بعين الاعتبار تواريخ تبني وتثبيت هذه المفاهيم في اللغلات الأوروبية ، وافترضنا أنها تواريخ تبنيها وتثبتها في اللغة الفرنسية[1] ، فاننا نستطيع القول بأن عملية تبنى المفاهيم هذه من قبل اللغلات الأوروبية جرت ببطىء شديد ما بين القرن التاسع والربع الأخير من القرن السابع عشر ، وهو ما يوافق فترة طويلة عرفت انتشار النشاط الاقتصادي بين هذين القسمين من العالم .

ان تبني وتثبيت مفاهيم في مجموعة ثقافية مغايرة هي بصفة عامة عملية تاريخية مركبة ، وهي تتحدد دوما بعلاقات القوى بين المجموعتين الثقافيتين الحضاريتين اللتان ترقيان هذه العملية . والسؤال المطروح هو ما هي العوامل والعناصر التي تحدد وتوجه هذه العملية ؟

– بداءة هناك النشاط الاقتصادي الذي يتخذ في هذه الحالة شكل نشاط تجاري وخدماتي موجه نحو الخارج ، هذا هو الاطار الذي تمارس فيه علاقات القوى التي ترقى عملية تبنى المفاهيم الاقتصادية المذكورة أعلاه . غير أن هذا لا يكفي اذ ينبغي أن يكون هذا النشاط الاقتصادي والتجاري الذي يجري بين الطرفين المعنيين بواسطة التحويل من جهة ، والتبني من جهة أخرى ، نشاطا دائما ولمدة تاريخية طويلة .

– ان المفهوم الاقتصادي ليس مجرد كلمة ، فهو يترجم دوما عملية اقتصادية محددة تقع أو

يمكن تحديد موقعها بدقة في الحركة الخاصة بهذا النشاط الاقتصادي وينتج عما سبق أن تحويل وتبني للسند الحامل لهذه المفاهيم نفسها . أي تحويل لبيئة المفهوم الاقتصادي كسياق معرفتي (Contexte de Connaissance) محدد ، وركائز مؤسساتية ، رؤية للعملية الاقتصادية ، وبدون شك بحث قصد معرفة أكثر للمفاهيم التي هي ليست فقط الا أدوات للنشاط الاقتصادي ، بل هي كذلك أدوات تأمل وتحليل ، فعلى سبيل المثال تبنى مفاهيم مثل جباية ، قنطار ، قرض ، حوالة وغيرها ، هو ترجمة لعمليات اقتصادية Opèrations Economiques تفترض فهما محددا للنشاط الاقتصادي هذا . الفهم الذي مثلما يمكن أن يكون مجرد عملية ممارسة ، يمكن كذلك أن يكون عبارة عن مجموعة نظرية ابتدائية أو أصلية تقنن وتنظم هذه الممارسة .

وبدون الرجوع الى الزمن البعيد نستطيع أن نبين كيف أن عملية تحويل وتبني المصطلحات العلمية بصفة عامة في أيامنا هذه ، ليست فقط مجرد نشاط ميكانيكي للتبني ، بل هي جهد تبذله المجموعة الحضارية المتلقية أو المتبنية للمفاهيم من أجل استيعابها وممارستها ، الأمر الذي يتطلب دراسات وبحوث وقراءة مضاعفة بدون اقنطاع وكذلك تأملات جماعية أحيانا صامتة من أجل انضاج عملية تحويل وتبني وممارسة هذه المفاهيم ، ويكفي أن نذكر بهذا الصدد ، على سبيل المثال ميدان الاعلام الآلي حيث يتم تبني الكثير من المصطلحات الأنجلوسكسونية من قبل مناطق بكاملها من العالم .

لهذه الأسباب نحن لا نتفق مع بعض المؤلفين ، منهم ليوناردو دوبيز (Lèonardo de Pise) المعروف تحت اسم فيبوناسي (Fibonacci[2]) الذي كان يعتقد بأن ما توصل إليه من نتائج في ميدان الحساب هي محض جهد قام به ، وذلك عندما نعلم أنه أقام بمدينة بجاية الحالية في الجزائر ، حيث كان والده قنصلا ثم تابع تكوينه في مصر وسوريا ، النقطة التي سنعود اليها لاحقا بدون شك ، وذلك عندما نتطرق الى مشاكل أخرى متعلقة بجوانب أخرى من هذا التأمل .

وينتج مما سبق مشكلتان رئيسيتان ، يمكن أن تتميز احداهما عن الأخرى وتشكل كل منهما موضوع دراسة خاص :

☆ في حالة كون هذه المفاهيم الاقتصادية يمكن أن تلعب الى حد ما دور مرآة لبعض الجوانب الملموسة للعلاقات الاقتصادية ، فان دراستها قد تعلمنا عن نوع النشاط الاقتصادي الذي كان يسود في اطار العلاقات الاقتصادية الخارجية بين العالم العربي - الإسلامي وخاصة الجزء المطل على البحر المتوسط منه وأوروبا الممثلة بايطاليا وأن النتائج المتوصل إليها ينبغي أن تساعدنا على ابراز نوع التأمل الاقتصادي والذي يفسر هذا النوع من النشاط الاقتصادي .

☆ أما المسألة الثانية فتكمن في ابراز سبل ممكنة يمكن أن تكون قد شكلت موضوع تأمل اقتصادي في اطار العلاقات التي كانت توجد بين العالم العربي - الإسلامي بقسمة المطل على

البحر المتوسط وايطاليا . نحن نعلم أن نقاط الاتصال العلمي كانت عديدة ولكن حسب معرفتنا في هذا الموضوع نقاط الاتصال في ميدان الفكر الاقتصادي لم تشكل موضوع تأمل وبحث مرضيين .

نتطرق الى المشكلة الأولى :

3) المفاهيم وطبيعة النشاط الاقتصادي :

ان مجموعة المفاهيم الاقتصادية المقدمة أعلاه يمكن اعتبارها عينة تمثيلية وعلينا اكتشاف مفاهيم أخرى . ان عددا كبيرا من هذه المفاهيم تغطي نشاطا تجاريا ، لكن نشاطا تجاريا خارجيا ، وهو يستعمل وسائل قياس فيزيائية كالوزن والحجم ، دون اهمال وسائل نقدية من أجل التقييم ، والقياس النقدي لهذا النشاط . وقد كان الذهب يشكل الوسيط الأساسي في الصفقات التجارية . وبالاضافة الى ذلك فانه نشاط لا يجهل عدد آخر من العلاقات من بينها القرض . اذن فهو نشاط سلعي حيث تبدو العلاقات النقدية المحدد في هذه العمليات ، ان الحساب الاقتصادي والبحث عن المزايا النقدية بواسطة عمليات البيع والشراء تبدو المميز الرئيسي لهذا النشاط ، اذا ما أردنا المسك بالسبب أو الدافع الذي يغذيه . ينبغي أن نضيف كذلك بأن النشاط الاقتصادي هذا لم يكن خاليا من الروح المركانتيلية أوالمركانتيولوية (Mercantile ou Mercantiliste) حيث يعتبر البحث عن الذهب نشاط تجاري مثله مثل الأنشطة التجارية الأخرى التي تجري بواسطة السلع غير النقدية .

وأكثر من ذلك أن النشاط التجاري ليس وحيدا ، بل هناك كذلك نشاط معدني ، حرفي زراعي ، ضريبي ، مضاربي ، وغيرها ، غير أنه في الاطار الذي يهمنا هنا ، واذا أخذنا بعين الاعتبار المفاهيم الموجودة يمكن أن نلاحظ الأهمية المتفرقة للمفاهيم العاسكة للجوانب المتعددة للنشاط التجاري .

مجموعة الأنشطة هذه ، التجارية خاصة ، كما قلنا ، تتلخص في وأنشطة نقل وايداع أنشطة تكميم ومبادلة . والكل في مجموعة علاقات نقدية لا تخلو من أهداف مركانتيلية ومركانتيولية . والأمر هنا يتعلق بقاعدة اقتصادية يمكن أن يتطور على أساسها تأمل أو فكر اقتصادي . أن وجود علاقات نقدية وسلعية هو الذي يسمح أو يخلق امكانية نشأة فكر اقتصادي ، لأن هذه العلاقات تخلق شيئا من الميوعة والليونة بين الحدود المكونة لهذه العلاقات . ان البشر يكونون في موضع أحسن بالنسبة الى الأشياء عندما يكون تطور البشر والأشياء محكوما بعلاقات نقدية وسلعية حتى لو كانت هذه العلاقات النقدية تتعلق بانتاج سلعي ما قبل رأسمالي .

ان الأمر يتعلق بنشاط اقتصادي كان يميز بدون شك بشكل غير متساوي العالم العربي الإسلامي ، انه نشاط كان يميز ميل هذا المجتمع الى تطور عميق . وتشكل العلاقات النقدية

والسلعية أحد المحاور الرئيسية التي تسمح لهذه العلاقات بالتطور ، أي نقول بأنه على أساس هذه القاعدة الاقتصادية الداخلية الخاصة بهذا المجتمع تنتظم كذلك التجارة الخارجية مع القارات والبلدان الأخرى ، بما فيها حالة ايطاليا هذه .

وعليه ينبغي التمييز بين مسألتين اثنتين وتقديم الاجابة الضرورية لها في شكل مقرر أو في شكل فرضيات وسبل بحث .

4) التأمل الاقتصادي العربي داخل العلاقات النقدية والسلعية في اطار العلاقات الاقتصادية الخارجية :

أ - داخل العلاقات النقدية والسلعية للعالم العربي - الإسلامي :

بداءة لن نأخذ بجد وجهة نظر بعض المستشرقين الأوروبيين الذين ظلوا لمدة طويلة يؤكدون عدم وجود تأمل وفكر اقتصادي عربي - إسلامي . زيادة على ذلك فانهم بمناسبة بعض الأعمال الاقتصادية كمؤلف الدمشقي حول «محاسن التجارة» قد بذلوا كل ما في وسعهم من أجل ايجاد علاقات انحدار للأفكار الرئيسية التي تضمنها المؤلف في الفكر الاغريقي ، بدقة أكثر من النيوبتاقوريسية (Nèo-Pythagoricienne) كما قدم تقييم مماثل لمؤلف نصر الدين الطوسي حول «الأخلاق» والذين يتضمن بين ما يتضمنه فصلين ، أحدهما في السياسة والآخر في الاقتصاد وللمؤلف كذلك كتيب حول مالية السلطان ، أي سلطان المغول في القرن 13 وفيه يلخص الطوسي محاسبه المالية العامة انطلاقا من تقسيم هذه المالية الى ايرادات ونفقات ، هذا من أجل أن نقول بأنه ينبغي عدم التسرع في الحكم في مثل هذه الميادين ، لأن ذلك من شأنه أن يضر بشدة بالبحث والعلم ، ولحسن الحظ أنه هناك بالاضافة الى هذين المؤلفين أعمال أخرى تبحث في المسائل الاقتصادية ، غير أنه صحيح بأن التأمل الاقتصادي المتولد عن القاعدة الاقتصادية التي حددنا طبيعتها سابقا ، لم يكن مستقلا . إذ تطور في ظل فكر تخصص أو علم آخر .

وهكذا مثلا كان يتم التعبير عن الفكر الاقتصادي بمناسبة الخطاب الديني والقانوني والفلسفي والتاريخي والأخلاقي .. وربما كان ينبغي انتظار القرن الـ 14 من الحضارة العربية الإسلامية لنعرف بأنه كان هناك ميل حيث يتجه الخطاب الاقتصادي الى التعبير عن نفسه بشكل أكثر استقلالية . نحن نفكر في ابن خلدون حيث يشغل التفسير الاقتصادي من بين التفسيرات الأخرى فصلا في «المقدمة» هذا لا يعني أن اللجوء الى تفسير الوقائع التاريخية بواسطة الاقتصاد كان غائبا في الأجزاء الأخرى من المؤلف .

ونصادف علامات مثل هذا التطور نفسها عند المقريزي الذي يحاول تفسير أزمة نقص الانتاج - التي أدت الى مجاعة خطيرة في مصر - بواسطة ظواهر اقتصادية اجتماعية وسياسية .

قد يكون هذا التطور في مجال التفكير الاقتصادي بالنسبة للتخصصات والعلوم التقليدية

الأخرى ناتجا عن نضج أكبر للانتاج آنذاك وتركيب أكبر له . هناك تفسير آخر ينبغي اضافته وهو لا ينفي الحجة المقدمة أعلاه . ان الفكر الاقتصادي يستقل عن الانشغالات الأخرى للعقل عندما يصير العمل الانساني معترفا به اجتماعيا . الأمر الذي يصبح ممكنا فقط عندما يميل الاقتصاد الطبيعي الى الزوال وحلول الاقتصاد السلعي محله ، وتكون الطبقة العاملة كطبقة اجتماعية متميزة يعترف بعملها الانتاجي اجتماعيا ، ويمكن ملاحظة هذا الاستقلال في التأمل الاقتصادي خاصة في ظل الرأسمالية والاشتراكية . والقرون الوسطى الأوروبية تشهد على وجود نفس الظاهرة والميول التي صادفناها بصدد التأمل الاقتصادي العربي - الإسلامي تكفي العودة الى أعمال المدرسيين (Scolastiques) الأوروبيين وفي الحالة هذه نعود الى الفكر المدرسي الفرنسي الذي نعرفه أحسن من غيره .

وبدون شك فانه بفضل تقاليد الفكر الفلسفي والاجتماعي الاغريقي - العربي تخصب الفكر المدرسي الأوروبي ، عبر صراع سياسي وأيديولوجي كثيفين من أجل تملك التراث الاغريقي - العربي واعطائه تدريجيا ثوبا أوروبيا ، منسيين بطرق شتى مصادر الاقتباس أو على الأقل تدنيتها والتقليل من أهميتها .

نرى كذلك بأنه في ميدان الاقتصاد والتأمل الاقتصادي ، ينبغي التساؤل عن الاتصالات الممكنة التي قامت عبر مختلف العصور بين الفكر أو التأمل الاقتصادي العربي والممارسات والتأمل الاقتصادي في أوروبا ، في العصور الوسطى ، بعض سبل الاتصال والاقتباس لا تنقص . الواضحة أكثر والتي تتوفر لدينا في الوقت الحالي ، هي بعض السبل وفرضيات العمل حول الاتصالات بين العالم العربي - الإسلامي المطل على البحر المتوسط وايطاليا في القرون الوسطى ، وهي نقطة سنعود إليها لاحقا .

أما في الوقت الحالي فالأمر يتعلق بالعمل على ابراز ولو في خطوطه العريضة هذا الفكر أو هذا التأمل الاقتصادي العربي - الإسلامي ، في انتظار بحوث معمقة ومتخصصة قادرة على تقديم نتائجها حول مختلف الجوانب .

في وقت ما كان يشك في وجود مثل هذا التأمل . يمكن أننا كنا ضحية تأثير المركزية الأوروبية الثقافية (Europèo - Centrisme Culturel) لكن هذه الحجة وحدها غير كافية . السبب الآخر الأكثر وزنا هو أن الأمر يتعلق بميدان جديد لم يدرس بشكل وافي والأكثر من ذلك هو أنه يجري منذ السنوات الأخيرة استثمار هذا الميدان من قبل نوع من التأمل السطحي الذي يحاول جعلنا نعتقد بأنه لا وجود لتأمل اقتصادي خارج الميدان الضيق والذي يجري حوله جدل كبير وهو «الاقتصاد الإسلامي» .

ان تراث المجتمعات العربية - الإسلامية كميدان هام ينبغي أن يخص باقتراب سليم وعلمي في ذات الوقت . نحن لسنا بحاجة لا الى المدح ولا الى التحقير (الذم) الضمني أو الصريح لهذا الرصيد

الثقافي والعلمي الذي بواسطته ظلت لمدة قرون تسير التشكيلات الاجتماعية المتعاقبة في هذا الجزء من العالم .

هـذا الفكر الاقتصـادي هو فكر اقتصـادي من نوع سلعي . ولم نعثر من خـلال قراءتنـا على تأمل حول الاقتصاد الطبيعي . فهذا هو اذن المحور الرئيسي لـذلـك الفكر . وهو يتنوع أي أنهـا نكتشف أقطاب تأملها ومصالحها وذلك حسب مختلف جوانب النشـاط السلعي . فـالميـادين التي يغطيها اذن تتعلق بالنقود ، والتجارة وتنظيمهـا ، وربمـا تكون ميـادين قـد جلبت اليهـا عـددا كبيرا من الباحثين والأعمال في الوقت نفسه . غير أنه يمكن أن ترتب بسرعـة الميـادين التي تخص هذا الفكر :

1) هناك القرآن ، والسنة ، ومختلف المدارس التي تقترح تقنين الأفعـال الاقتصـاديـة للـدولـة والأفراد انطلاقا من تصورها لتفسير النصوص .

2) هنـاك نوع آخر من المؤلفـات ينتسب الى التـأمـل حـول تنظيم الـدولـة واقتصـادهـا عبر انشغـالات تملـك الفـائض الاقتصـادي ، وتحتوى هـذه الأعمـال على تـأمل كامـل حـول الضرائب واجراءات توزيع ناتج النشاط الاقتصادي ، ونفكر هن في كتاب (الخراج) لأبي يوسف وكـذلـك الكتـاب المعنون «تنظيم الـدولـة» «Traité de Gouvernement» لصـاحبـه نظـام الملـك أو مـؤلف الموردي بعنوان «الأحكام السلطانية» .

3) مؤلفـات حول الممارسـة الاقتصـاديـة وخـاصـة منهـا تنظيم التجـارة الـداخليـة منهـا مـؤلف الدمشقي بعنوان «كتاب محاسن التجارة» كما أنه يمكن اضافة مؤلفات الحسبـة الى هـذه الفئـة ، وهي مؤلفات عديدة ، والتي تطبق في تقنين النشاط الاقتصادي ، والتجاري وأحيانا الاجتماعي .

4) هناك مؤلفـات ذات مستوى نضج نسبي ، مثل مقـدمـة بن خلـدون ، أو مؤلفـات المقريزي «اغاثة الأمة بكشف الغمة» و «شذور العقود في ذكر النقود» أو كذلك كتاب «الخطط السلطانية» .

ان القائمة مـا زالت بعيـدة عن النفـاذ ، سواء حسب الموضوعـات أو حسب المؤلفـات . وقـد تباغتنا في المستقبل بظهور موضوعات أخرى[3] كما قد تظهر أجزاء جـانبيـة لهـذا الفكر . اذا هل يمكن الاعتقاد بغياب سيستميكي للتأمل في التجـارة الخـارجيـة ؟ انـه أمر مـازلنـا نجهلـه . وهل يمكن كذلك الاعتقاد بأن نشاط التجارة الخارجية كان يتلخص خلال قرون في ممارسـة التصـدير والاستيراد فقط ؟ نحن لا نعتقد صحة ذلك ؟ كما لا يوجد لدينـا مـا يثبت العكس . كما أننـا لا نعتقد صحة ادعاء بعض أصحاب مؤلفات في التاريخ بأن التجارة بين افريقيا الشمالية وايطـاليـا كانت متبوأة من قبل الطرف الايطالي .

ب - في بعض فرضيـات وسبل التـأمـل والبحث المتعلقـة بـالميـدان الاقتصـادي الرابط ايطاليا بالعالم العربي في القرون الوسطى ، بما فيها شمال افريقيا :

بداءة هناك بعض الحالات التي ينبغي التنويه بها والتي قد تساعدنا على فهم صعوبة المهمة .

أن النقص في معرفتنا للاقتصاد المدرسي قد شكل ومازال يشكل عائقا كبيرا في وجه معرفة جوانب عديدة من الفكر خلال تلك الفترة . هذا ما أكده اخصائي الاقتصاد المدرسي د . روفر De Roover ونحن نتفق معه مؤكدين في نفس القوت على أنه لا يأخذ بالاعتبار سوى المرحلة التاريخية التي تخص الفكر المدرسي الأوروبي : «اذا فقد ظل الاقتصاد المدرسي ميدانا بكرا رغم جهود لويجي كوسا Luigi Cossa[4]» ، بمعنى آخر فان المسألة بالنسبة لنا مزدوجة الصعوبة هذا ان لم تكن مستعصية الحل ، فكيف يمكن المسك والاهتداء الى رواسب الفكر الناتجة عن التبادل الاقتصادي والتبادل في التأمل الاقتصادي الذي جمع عالمنا على التوالي ؟

حول هذه النقطة يمكن أن نقدم ملاحظة اقتبسناها عن كلود كاهن Claude Cahen وهي على جانب بالغ من الأهمية :

– ان الأنشطة الاقتصادية التي تمت في اطار العلاقات الخارجية بين الأمبراطورية العربية الإسلامية والأجزاء الأخرى من العالم لم تكن محكومة بالقوانين التسلطية والأحكام الخاضعة للتقنين الفقهي للسلوك .

نضيف قائلين بأن هذا الفكر الاقتصادي كان عبارة عن جهد لتأويل وتفسير وتكييف النشاط والسلوك الاقتصادية لمتطلبات أو لتوصيات النصوص المذهبية الممثلة بالقرآن والحديث . غير أن الأمر يتعلق بنشاط وسلوكات اقتصادية تخص المجموعة الاسلامية المحكومة بصفة عامة بعلاقات نقدية وسلعية وحيث كانت السوق الداخلية تشكل المركز الرئيسي الذي تنظم حوله حياة المجموعة .

ألم يكن النشاط الاقتصادي الخارجي للعالم العربي – الإسلامي أن يشكل ميدانا مفضلا نسبيا ، لأنه كان يفلت من بعض القيود التقليدية للقرون الوسطى بصفة عامة والتي كانت ذات وزن هام وتقنين صارم للنشاط الاقتصادي في اطار السوق الداخلية ، مثل تنظيم الأسعار ، تحديد طرق الانتاج ، أشكال المنافسة ، الرسوم ومختلف الالتزامات التي تعكسها مؤلفات الحسبة .

آخذين باعتبار ما سبق ، ألا يمكننا القول اذا بأن النشاط بواسطة التجارة الخارجية للعالم العربي – الإسلامي يشكل ميدان حرية اقتصادية نسبية ، لأنه متخلص من القيود ومن هنا فان هذا النشاط كان ينبغي أن يشكل اطارا يجب أن يزدهر تأمل اقتصادي مهوي aéré ؟ ان هذا الجانب من الحقيقة ليس ميزة للعالم العربي – الإسلامي فأوروبا هي الأخرى عاشت هذه المرحلة التاريخية حيث شكلت أنشطة التجارة الخارجية خلال مرحلة تاريخية كاملة مركز حياة متفوق بالنسبة للمراكز الأخرى .

ألا ينبغي الاعتقاد بأن البلدان التي عرفت أكثر من غيرها اتصالات تجارية وعلمية وغيرهما خلال تلك الفترة هي التي – شريطة أن يكون هناك تماثل في الاسهام – دقت التحكم في التقنية والأدوات والمؤسسات التجارية والاقتصادية ؟

نحن نعتقد بأن هذه الحالة التاريخية التي حصلت في القرون الوسطى بين ايطاليا والعالم العربي - الإسلامي وحيث لعبت افريقية الشمالية دورا هي التي ينبغي تدقيقها لأن الكثير من المستشرقين يميلون الى تدنيته أو تجاهله . ومع ذلك فانه حتى يمكن فتح سبل بحث خصبة ودائمة ينبغي أن نتجنب أو على الأقل أن نعي وجود عقبتين يجب أن نعرف كيف نتغلب عليهما ، ينبغي تجنب العقبة الأولى والتي تتمثل في الأوروبيو - مركزية التي ظلت طويلا توهم بأن المفكرين العرب المسلمين كانوا مجرد وسطاء في نقل الفكر الاغريقي الى الغرب .

فالفكر الاغريقي لم «يعبر» فقط العالم العربي الإسلامي ، بل تم استيعابه وتطويره حسب المنطلق والحركة الخاصة بهذا العالم . وعليه ، فانه في ميدان الاقتصاد يعتبر من الخطأ اطلاقا إسقاط التأملات الاقتصادية التي تطورت في العالم العربي الاسلامي الى الأطروحات الأرسطوطاليسية التي نجدها في أخلاق نيكوماك (Ethique à Nicomaque) أو في المؤلف الآخر ، السياسة . اننا نعتقد بأن الاطروحات الأرسطوطاليسية قد أخذت بعين الاعتبار ، غير أننا لا نعتقد أنها كانت مسيطرة في ميدان التأمل الاقتصادي .

أما العقبة الأخرى ، الخاصة بالنزعة المركزية العربية ، التي تريد أن تجعلنا نعتقد بأن كل شيء قد قيل وصيغ في ميدان الفكر الاجتماعي من قبل الفكر العربي - الإسلامي وأنه بالنسبة للتيارات العصرية الكبيرة للفكر الاجتماعية الحديث ينبغي أن نعتقد بأنه أما هناك نقص فكري أو روحي ، أو على الأقل العودة الى التراث بمختلف مظاهره الجانبية لايجاد المصدر للتأمل والإلهام .

ان هذا الموقف خاطىء وخطير في نفس الوقت ، لأنه حمال لسلوك ينكر أولا يعترف بالتقدم العائد الى جهود الأجزاء الأخرى من العالم . أنه موقف يتغذى من حنين مع عفونات شوفينية ...

انه بتجنب هاتين العقبتين سنقوم بترتيب نقاط الاتصال ، أي النقل الممكن سواء للأنماط الاقتصادية للفكر ، أو للأدوات ، أو للتقنيات الاقتصادية والتجارية . ان الأمر يتعلق بفرضيات تأمل وعمل وبحث تفترض أن حركة النقل وقعت انطلاقا من العالم العربي - الإسلامي نحو أوروبا ، بواسطة الأنشطة الاقتصادية والتجارية مع ايطاليا . وهي فرضيات تقوم بصياغتها انطلاقا من قراءة بعض المؤلفات الموجودة في الببلوغرافيا . ان نقص الوثائق ، خاصة عن الجانب العربي ترجع هذه الفرضيات الى تساؤلات أكثر منها فرضيات ، حيث يحل الحدس والخيال محل الوقائع .

أول فرضية حول أدوات التأمل الاقتصادي :

نحن نعلم أن فيبوناشي (Fibonacci) تلقى في بداية القرن الثالث عشر ببجاية ، حيث كان

أبوه يمسك زمام الجمارك لصالح جمهورية بيزا (Pise) ، تعليم الحساب على الطريقة الهندية . لقد كان مغروما بطريقة الحساب هذه وتحسن فيها خلال الأسفار التي قام بها الى مصر وسوريا وصقلية . وفي عام 1202 نشر كتاب «البواقي»[5] .

دائما وحسب نفس المصادر ، ففي مدينة بجاية تحصل فيبوناشي على مبادىء الحساب الجهوي للعرب ، بينما في مصر وسوريا واليونان وصقلية فقد تابع دروس العلماء المسلمين الذين تم بهم تقاليد في الحساب المركانتيلي في هذه المدن .

وحول هذا الموضوع وردت ثلاث وجهات نظر ، هناك وجهة نظر بورتولوتي (Bortolotti) الذي يؤكد على ضوء الوثائق العربية المكتشفة في أيامنا هذه على أن ما اقتبسه فيبوناشي من العلوم العربية هو نسبيا شيء قليل . ولكن هنا تطرح أسئلة عديدة ينبغي الاجابة عنها ، منها ما هي هذه الوثائق العربية التي أطلع عليها ؟ أين توجد وكيف التوصل الى مطالعتها ؟

وجهة النظر الثانية هي لفيبوناشي نفسه الذي يقول : «بعد مزيد أكثر من الدراسة لهذا النظام ، واضافة شيء خاص بي ، وتطبيق بعض الحيل من الهندسة الاقليدية عليه اشتغلت بهذا المؤلف الذي قسمته الى خمسة عشر فصل «والأمر يتعلق هنا بـ Liber Abaci أو كتاب البواقي[6] المتضمن لمسائل جبرية طبقت على «الاستعمالات العادية في الحياة والصفقات التجارية» .

ان كل هذه الدلالات هي التي دفعتنا الى الاعتقاد بأنه رغم الجهود التي بذلها فيبوناشي يبقى أن هناك قاعدة مرجعية هي الممارسة الجبرية والحسابية التي ميزت العالم العربي - الإسلامي خلال تلك المرحلة والتي قد تكون تتضمن عناصر الحساب التجاري والاقتصادي ، هي التي نقلت الى أوروبا بعد تطويرها ونقلها بدون أي شك من قبل ايطاليا وذلك على ضوء تجربتها الخاصة واتصالاتها مع البلدان الأوروبية الأخرى وخاصة مع أنجلترا خلال القرون 14 ، 15 ، و 16 .

وجهة النظر الثالثة هي لعالمين ألمانيين في القانون (كوهلر Kohler) وقراسشوف (Grasshof) اللذان لاحظا بالفعل بأن «العرب كانوا يملكون منذ القرن العاشر تقنية تجارية جد متطورة ، وكانوا يقدمون على اقامة علاقات مع مناطق نائية عديدة في الشرق والغرب وبعضهم كانوا يسجلون المعلومات العملية التي تخص الأعمال مع هؤلاء وأولائك في شكل كتيبات «دليل التاجر الكامل» فقدمونها لشركائهم لأجل استعمالها .

وقد وصلنا أحد هذه المؤلفات وهو لأحد يسمى الدمشقي يكون قد عاش في القرن الحادي عشر» .

نحن نعتقد بأن هذه هي وجهة النظر التي لا تستبعد جوانب أساسية للحقيقة . وعليه فان أحد سبل البحث وتعميق التساؤلات في هذا الموضوع يكون بدفع التحليل نحو المصادر الايطالية في المحاسبة . وحول هذا الموضوع يمكن أن تكون هناك مراجع تشكل نقطة الانطلاق في بحث هذه النقطة الخاصة . أن الأمر يتعلق بالتساؤل أو السعي الى العمل على كتاب

فرنسيسكو دي بالدوسيو بيقولوتي Francisco Dibalducio Pegolotti الذي كتب «كتاب التجار الكامل» المحرر ما بين 1332 و 1345 تحت عنوان (Partica della Mercatura) نحن نعلم أن بيقولوتي قد قام بزيارات عمل الى أنجلترا كما نعلم كذلك أن توماس مان (Thomas Mun) وهو أحد مفكري المركانتيلية الأنجلزية وصاحب نظرية الميزان التجاري الفائض ، قد وصل الى ايطاليا فيما بين 1596 – 1598 وأقام ببيزا ، واهتم بالمضاربة التجارية وتعرف على أعمال فرنزاتي . مصدر آخر وهو ليس بدقيق جدا بالنسبة لنا وهو أنه كانت هناك أعمال حول ما كان يسمى بالايطالية (L'atre di calimala) والذي يترجم بفن التجارة . وهذا المصدر قد يخص كذلك المحاسبة التجارية .

أخيرا مصدر أخير وهو مؤلف لوكابا سيولي (Luca Paccioli) الصادر بالبندقية عام 1494 ، والذي هو أول عرض ستمتيكي لمحاسبة القيد المزدوج .

ثاني فرضية حول السفتجة أو الكمبيالة :

في هذا الموضوع ، هناك كذلك وجهة نظر المستشرقين الألمان الذين يؤكدون على عكس وجهات النظر الأخرى المعاكسة والتي تصب فيما قلناه عن Bortolotti على أنه لا مجال للشك في أن السفتجة قد تم نقلها انطلاقا من الممارسة العربية مع ايطاليا . غير أنه ينبغي أن نضيف بأنها وجدت من قبل ، وأن السؤال المطروح هو : هل كان هناك تحسين لتقنية السفتجة من قبل العرب ؟ ومع كل أسف ليس لدينا ما نقوله في هذا الموضوع .

الخلاصة :

ان التأملات التي قمنا بشرحها فيما سبق تسمح لنا بتقديم مجموعة من الملاحظات النهائية .

ان البحث في الفكر الاقتصادي للتشكيلات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية ، على غرار العالم العربي الإسلامي يمكن أن يشكل اسهاما ثمينا لفهم مجتمعاتنا اليوم .

ان النتائج التي توصلنا اليها والتي تتلخص في أسئلة أكثر دقة تساعدنا كذلك على نسبية الاقتصاد السياسي ومعرفة أفضل لمراحل تطوره ، نحن نعتقد بأن ايطاليا القوية بدون أي شك بأرث في الفكر الاقتصادي والتقنيات الاقتصادية هي التي ستطوره وتنقله فيما بعد الى أنجلترا وربما الى هولندة والى دول رأسمالية أخرى كانت في اطار التكوين ، وهو ما كوّن القاعدة التي أوجدت المركانتيلية الأنجليزية انطلاقا منها مصادر الهامها وتطورها . وهو مايعني اذا بأن الفكر الاقتصادي هو واحد لكنه متنوع ومتمايز في مراحله وفي التشكيلات الاجتماعية المختلفة التي ولدته .

هـوامـش

(☆) ما هي مثلا العلاقة التي يمكن اقامتها بين المقريزي وجان بودان بصدد النقود ؟

(☆) تشكراتي للسيد / محطنة مسعود الذي ترجم هذا النص من الفرنسية الى العربية

(☆) ان هذا العمل حول المفاهيم سيكمل ويدقق أكثر باللجوء الى بعض المصادر العربية مثل لسان العرب لابن المنظور

(1) نحن نستنـد على تـواريـخ تبنّى المفـاهيم التي تخص اللغـة الفرنسيـة ، أنظر مثـلا القـامـوس Dictionnaire Hachette - Langue, Encyclopèdie Noms Propres - Hachette 1980 .

(2) Fibonacci Léonardo Bonacci, appelè aussi Lèonardo de Pise (nè en 1170) mort dans la premiére moitiè du 13eme sciècl, Regagna, I'talie en 1200 publia le livre des Abaques .

فيبوناشي ليوناردو بوناشي ، اسمه أيضا ليونردو وبيز (المولود في 1170 (؟) والمتوفى في النصف الأول من القرن الثالث عشر عاد الى ايطـاليـا عـام 1200 ونشر كتاب (البواقي Troisè se L'abaque .

(3) تجدر الاشارة هنا الى العمل القيم الذي قام به الأستاذ محمد الفائز بجامعة مراكش حول علماء الزراعة العرب ، سواء في أطروحته أو في مقالاته منها مشكل ملوحة الأراضي في الكتب العربية حول الزراعة «أو» علماء الزراعة والمعتكفين في العراق في القرن العاشر «وضمن النقاط التي يتنـاولهـا هنا دراسة لأعمال ابن وحشية في مواجهته للمتصوفين» .

(4) يعتبر لويجي كوسا Luigi Cossa الذي هو ايطالي الأصل منشأ للاقتصاد السياسي على عكس الآراء التي تؤكد أن نشوءه كان مع الكلاسيـك بشقيهم الانجليزي والفرنسي

(5) «Traitè de L'abaque»

(6) Traitè de L'abaque .

المـراجـع

* Claude CAHEN : L'Islam des origines au début de l'Empire Ottoman, Ed. Bordas, 1968.

* FIBONACCI (Leonardo de Pise) : Le livre des nombres carrés, 1952.

* R. de ROOVER : Thomas Mun en Italie.

* Y. RENOUARD : Les hommes d'affaires Italiens du moyen-âge, A. Colin, 1968.

* E. BORTOLOTTI : Le fonti arabe di Leonardo Fibonacci, Académie des Sciences, Bologne.

* R. GRASSHOFF : Weschserecht der Araber, eine Rechtsvergleichende Studie uber die Herkurft des Wechesels, Berlin, 1899.

* Juan VERNET : Ce que la culture doit aux Arabes d'Espagne, Sindbad, Paris, 1986.